وقفة باطلال بابل

بقلم حضرة الاب ا . س . مرمرجي الدومنيكي
من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

١
تمهيد

في لساننا العامي ، او في لغتنا العراقية ، لفظة « نَكّاب » وجمعها « نَكّابة » لا نكاد نتلفظ بها ، الّا وقد تمثل في مخيّلتنا ، رجل اُمّي ، فقير الحال ، ذو مهنة حقيرة — هي حفر الارض ، ونقل التراب او فضلات مواد البناء — يزاولها لكسب قوته ، وقوت عياله ، بشق النفس ، وعرق الجبين . اما اذا عدلنا عن اللفظ الدارج ، ونطقنا بالكلمة طبقاً للغة الفصحى ، باخراجنا الحرف الثاني قافاً ، لا كافاً ، كالعراقيين ، ولا آفاً ، كالسوريين او الفلسطينيين ، انتقلنا من عالم الانحطاط ، الى عالم الارتفاع ؛ ومن جمهور العامة ، الى طبقة الخاصة ؛ ومثل امام بصيرتنا أمرؤ له المقام الكريم في الالفة العصرية المتمدنة ؛ امرؤ له الفضل العميم على ابناء جنسه ، بما يكشفه لهم من الكنوز المدفونة في جوف الارض ؛ تلك الكنوز التي تُرْدي ، لثمنها المعنوي ، باجزل الاموال المادية . فما هو ، يا ترى ، سرّ هذا الفرق والتباين بين « النكّاب » و « النقّاب » ؟ سرّه كلمة اخرى ، قد كانت ولا تزال مدعاة للتقدم والتمدن والكمال ؛ ومبعثة للمفاخرة والمنافسة والمباهاة ؛ كلمة يتكهرب ، لمجرد ذكرها ، ارباب العقول الثاقبة ، والمدارك العالية ، والالباب الصافية ، الا وهي تلك الكلمة السامية ، تلك الكلمة المقدسة « العلم » العلم ، اجل ، هو العلم انشأ الفرق بين « النكّاب ، والنقّاب » اذ بعدم العلم ، وجد النكّاب ومهنته الخسيسة ، وان كانت ، من غير باب ، نافعة ، لازمة ، بين طبقات البشر ؛ وبوجود العلم ، رُفع النقّاب ، اي مكتشف الآثار القديمة ، الى مقامه

هذا الشريف ، ومن هنا تظهر خطورة فن التنقيب ، اذ هو الواسطة لتوسيع علم الاثريات ، وبهذا العلم عينه ، يترقى علم التاريخ وغيره من العلوم . ولذا فاستنادًا الى مبادئ ونتائج هذين العلمين الجليلين : علمي العريقيات ، والتأريخيات ، المتوسمين بفنّ ارباب الحفر العصري ، قد انشأتُ هذا المقال المعنون «وقفة باطلال بابل» والغاية منه ان اصف ، وصفاً موجزًا ، ما قد بقي هناك ، من الآثار التي ذهبتُ ، في شهر تشرين الاول الفائت ، فوقفت بينها وقفة الباحث (١) ؛ ثم اشفع الوصف بلمحة التيها على تأريخ هذه المدينة الشهيرة ، على كرور الازمان ، وتقلب الدول . وهو ، وايم الحق ، موضوع اطرقه بلذة وسرور ، وافتخار واعتزاز ، لان بلاد بابل هي العراق وطني العزيز ، «ومن احب وطنه وافتخر به ، ما ظلم»

ذكرى اسمها

بابل ! ومن يا ترى يجهل اسم بابل ؟ بابل اسم عرفناه ، منذ نعومة اظفارنا ، ونحن على مقاعد المكاتب ، نتلقى مبادئ التاريخ القديم ، بابل هي البقعة التي نزل اليها ابناء نوح عند خروجهم من السفينة ، بعد الطوفان . بابل هي سنعار التي قال فيها ابناء البشر : «تعالوا نصنع لبناً وننضجه طبخاً .» فكان لهم اللبن بدل الحجارة ، والحُمَر بدل الطين . ثم قالوا : «تعالوا نبنِ مدينةً وبرجاً ، رأسه الى السماء ، ونقم لنا اسماً ، لكي لا نتبدد على وجه الارض .»

بابل هي التي فيها قال الباري : «هلمَّ نهبط ، ونبلبل هناك لغتهم ، حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض .» . ولذلك سميت بابل ، لان الرب هناك بلبل لغة الارض كلها . بابل هي البلاد التي نشأت فيها اول مملكة في الدنيا ، على يد نمرود الجبار . من يذكر اسم بابل ، ولا يخطر بباله جلاء اليهود الى

---

(١) يطيب لي ان اسدي في هذه الفرصة ، خالص شكراني الى ابناء وطني الاماجد ، الشبان النجباء : احمد حامد آل الصرّاف ، وفخري بك الطبلجه لي واخاه ، لما ابدوه نحوي من اللطف والحفاوة ، وادّوه لي من الخدم الجليلة ، يوم نزلت الحلة ، قصد الوقوف على اطلال بابل .

تلك الديار ، حيث بقوا السنين الطويلة ، متشوقين الى اورشليم ، مرددين بكآبة قائلين : « على انهار بابل هناك جلسنا نبكي ، عند ما تذكرنا صهيون ، على الصفصاف ، في وسطها ، علقنا كنانيرنا . » ؟ من يتلفظ باسم بابل ولا يتصور منها سجيناً ، وحزقيال اسيراً ؟ من يورد اسم بابل ، ولا يتبادر الى ذهنه قصة سوسنة العفيفة ، واستير الملكة الجليلة ، ودانيال النبي الكريم ، ملقى في جب الاسود ، وهي رابضة عند اقدامه ؛ والشبان الثلاثة في اتون النار سالمين مرفهين ؟ بابل ام المدائن ، وسيدة البلاد ؛ مركز الحضارة والعمران ؛ مصدر العلوم والفنون . بابل منجبة الرجال العظام ، كشركينا القديم ، ونادين ، وبسموبليت ، ونبوكدنصر الاول والثاني ، ولاسيما حمورابي ، معلي شأنها ، ورافع لوائها . بابل المدينة التي طبقت شهرتها الخافقين ، وقد عرفتها امم الارض طراً ؛ فوصفها لنا المؤرخون القدماء ؛ منهم اربعة يونانيون وهم : هيرودوت ، واكتازياس ، وديودورس ، وابيدين . واثنان ساميان وهما : بيروس او برهوشا البابلي ، وابو حسن ثابت الحراني . وقد جاء ذكرها في تأريخ يوسيفوس اليهودي ، واوسابيوس القيصري ، واقليميس الاسكندري ، وغيرهم ممن جاءوا بعدهم . الّا ان كلامهم لم يات وافياً بالمرام

وصف موقعها واطلالها

وبقيت الحال ، على هذا المنوال ، حتى اقترن الغابر ، حيث هبّ علماء اوربة ، فشدوا الرحال ، الى هذه الديار ، ليطّلعوا عن كثب على ما حوته من قديم الاثار ، غير مكترثين لما يتجشمونه من جسيم المشقات ، وما يصرفونه من طائل النفقات ، فاضحوا نقّابين ، وقلبوا التلال ظهراً لبطن ، ليعرفوا ما كنّه داخلها من جليل اللقى الاثرية . وكان مقدّم النقّابين وشيخهم ، في بلادنا العراقية ، المسيو بطّة ، قنصل فرنسة في الموصل . وقد اجرى اول اعماله الحفرية الفنية ، تجاه الحدباء ، قرب قرية النبي يونس ، في تل قوينجق ، اي في موقع نينوى القديمة عاصمة المملكة الاشورية ، ثم انتقل الى ضرضاط اي موقع

دورشرّوكين ، وذلك سنة ١٨٤٢ . ثم تبعه في العمل فلاندا سنة ١٨٤٤ وبلاس ، ولايَرد سنة ١٨٤٥ . وشارك لايَرد في تنقيباته هرمزد رسام الموصلي . واما التنقيبات الاولى التي جرت في الربوع البابلية ، فكانت على يد لايَرد ، ولوفتوس ، وفرنل ، واوپير ، ورولنسون . وجميعهم من اصحاب الاثريات المتضلعين في علمهم وفنّهم . وجرت اعمالهم بين ١٨٤٩ و ١٨٥٢

على ان البلاد التي ندعوها اليوم العراق تشمل ثلاث ولايات ، من ولايات التركية القديمة . اي ولاية الموصل شمالًا ، واقصى حدودها نواحي مدينة زاخو ؛ وولاية بغداد ، العاصمة ، وهي في الوسط ؛ وولاية البصرة ، جنوباً ، الى خليج فارس . وقد سميت في القديم ما بين النهرين ، اي دجلة والفرات ، لانها مكتنفة بهذين الرافدين ؛ ودعيت في سفر الخلق بارض سنعار ؛ والعرب اطلقت عليها اسم الجزيرة ؛ واما اليونان فهي معروفة عندهم باسم ميزُوپوتاميا . ولكن في عهد اهلها القدماء ، كان لكل قسم منها اسم خاص . فالشمال كان يدعى اشور اي آثور ، وحدود هذه المنطقة ، في الجنوب ، نواحي بغداد ، اي على طول الخط الممتد من فلوجة ، الى دلي عباس . واما بين بغداد والخليج الفارسي ، فكانت البقعة ، في اقدم عصور التأريخ ، منقسمة الى منطقتين ، المنطقة الشمالية وتعرف بالربوع الأكّديّة ؛ والمنطقة الجنوبية ، وتسمى الديار السمرية . وقد شمل يوماً هذه الاصقاع اسم البلاد البابلية او الكلدانية . ومن مدن المنطقة الجنوبية السمرية مدينة « اورو » وتعرف اليوم بالمغَيَّر او المكَيَّر ، على اللفظ العراقي ، وهي التي سمتها التوراة « اور الكلدانيين » موطن ابراهيم الخليل ، ومن هناك دعاه الربّ ليذهب الى بلاد كنعان ، عابرًا بحرّان . ومنها مدينة « اريدو » المدعوة اليوم ابو شهرين ، وكانت مرفأً على البحر ، مع انها الان في القفر . وذلك لان الخليج ، في تلك الازمان ، كان يصل الى مسافة نحو ٢٠٠ كيلومتر عن ساحله الحالي ؛ ولم يكن لشطّ العرب من وجود ، لان الفرات ودجلة كان لكلّ منهما مصبّ منفرد ، ولم يتصلا ويكوّنا شطّ العرب الا على كرور الادهار ، بقدر ما كان يبتعد ساحل الخليج بفعل تراكم الرمال المندفعة منه بقوة المدّ . ومن الحواضر

الشمالية الاكدية ، نيبور ، وبارسيبا ، وكوثا ، وسيبارا ، ودوركوريكلزو ، وبغداذا ، وكيش ، ولاسيما أكد التي لاهميتها في ذاك الزمان سميت باسمها المنطقة كلها ، الا ان الاكثر خطورة وشهرة هي ، دون مراء ، مدينة بابل التي نحن في صددها

مما لا شبهة فيه تاريخياً ، ومما قد ثبت راسخاً في تقاليد سكان البلاد الموروثة منذ القدم، هو ان موقع بابل القديمة في نواحي المدينة التي بناها العرب، في صدر الاسلام ، الا وهي مدينة الحلة التي هي اليوم مركز لواء من الوية مملكتنا العراقية ، وتبعد عن بغداد نحو ٩٠ كيلومتراً الى الجنوب الغربي . اما بابل فكانت ممتدة على ضفتي الفرات ، وكان القسم المهم منها على الضفة الشرقية

وقد ذكر هيرودوت ان محيطها كان يقدر بنحو ٤٨٠ غلوة ، او زهاء ٩٠ كيلومتراً ؛ وكان يعلو اسوارها ما يقرب من ٣٠٠ قدم ، وثخنها ٥٠ قدماً . ويذكر المؤرخون انه يوم دخلها الاسكندر المقدوني ، ونجم مجدها وعزها قد افل ، كان محيط المأهول منها نحو ٩٠ غلوة اي زهاء ١٥ كيلومتراً ، وهو محيطها الحالي ، وقد هدم النهر القسم الصغير منها ، وهو الواقع على الضفة اليمنى ، فلم يبق سوى بضع قطع من سوره

وضمن محيط المدينة ، ترى اليوم ثلاثة تلول : الواحد في الوسط ، الواقع في شرقي ضيعة ، جالسة على النهر ، تدعى « كوَيرش » وهو تصغير اسم كورش ملك الفرس الذي استولى على المدينة . وهذا التلّ يعلو عن الفرات ١٤ او ١٥ متراً . واهم موقع منه يدعى « القصر » ، لان في جهته الجنوبية كان مبنياً قصر نبوكدنصّر . وقد كشف المنقّبون اساسه ، واظهروا عدة قاعات ، منها ردهة العرش الخارقة الاتساع . ومن جهة التلّ الشمالية ، قد كشفوا سطحاً ، وقفوا في أسه ، على قواعد عواميد من الآجرّ ، وهي كلها راجعة الى قصر آخر للملك نبوكدنصّر . ومن الناحية الشرقية لهذه الخرائب ، قد وجدوا طريقاً ، مزينة بالنقوش الناتئة ، المصنوعة من الآجرّ الملون ، المصقول ، الشبيه بما ندعوهُ اليوم « كاشي » في عراقنا . وفيه صور اسود ، وثيران ، وتنانين ، وهناك ايضاً باب جميل ، فاخر ، يدعى « باب إشتر الالاهة »

و« هيكل ننماخ » وهذه الطريق هي طريق « الطواف الحافل » الذي كان يجري لاكرام الاله مردوخ . ومن جملة اللقى التي وجدت في خرائب بابل ، على تلّ القصر ، تمثال كبير ضخم ، يمثل اسداً ، وهو من حجر البركان ، غير كامل الصنع . والظاهر انه من زمن « باب إشتر ، وطريق الطواف » اي من القرن السادس ق.م . الّا انه يمكن ان يرقى به الى القرن الثالث عشر ، لان صنعه من الطرز الحثي المعروف . وقد كشفت التنقيبات الحديثة اشياء كثيرة من طرزه ، كما يرى ذلك في زنجرلي ، قرب عينتاب ، في تركية ؛ وفي كركميش ، قرب جرابلس ، من نواحي حلب . وهذا الاسد راكب على رجل يريد خنقه وسحقه . ومن التآويل التي أبديت في شأنه ، انه يمثل ملك بابل ، الاسد الهاجم على اعدائه ؛ وان الرجل الساقط تحته يشخص الملوك المقاومين ، الذين حاربهم ، فانتصر عليهم

الى جنوب القصر ، تلّ آخر ، يدعى « تلّ عمران بن علي » يوجد فيه آثار اهم هيكل للبابليين ، وهو هيكل « إيساكيلا » الذي كان داخله الهرم ، او البرج ذو الطبقات ، او « المَنزول » في عرف المراقيين اليوم . وعلّه الحفرة المقدمة التي مساحتها نحو ١٠٠ متر مربع ، المدعوة في ايامنا « الصحن » ، وهي في وسط الجامع ، تحت القبة . وعلى مسافة نحو كيلومترين الى شمالي القصر يرى تلّ منفرد يدعى بابل ويحتمل ان يكون موقع قصر آخر من قصور نبوكدنصر ، ومكان ما دعي بالبساتين المعلّقة الشهيرة للملكة شميرام . والى شرقي القصر موقع يدعى « الحُمَيرة » تشاهد منه اثار السور القديم .

« برز نمرود » على بعد ١٢ كيلومتراً ، الى جنوب غربي الحلة ، واقع تل عظيم ، فيه خرائب تظهر كان لا شكل لها ولا نظام ، قوامها من آجر قد تغير لونه ، فصار من قبيل الفخار او الزجاج . وهذا التل ، القائم وحده في وسط تلك السهول ، هو ما يدعى اليوم : « برز نمرود » اعني البناء البارز ، المعزوّ الى نمرود . وما هو بالحقيقة سوى بقايا مدينة « بُرسِيا » وقد بقي هناك ، بفضل التواتر ، ذكر « برج بابل الشهير » . وهذا البرج يرى عن بعد ، من وراء الفرات ، في منتصف الطريق المؤدّية من بغداد الى الحلة . واذا خرج السائح من هذه المدينة ، برز

حالًا امـامه البرز كجبل ، يتخيله قريباً ، وهو لا يزال يبتعد ؛ مما يذهل المسافرين ، فيوقعهم في حيرة . علو البرز الآن ٤٦ متراً ، ودائرته من اسفل نحو ٧٠٠ متر ، وجهته الجنوبية الغربية وعرة المسلك . ويرقى اليه من الطرف الشرقي ، بوادٍ متحدّر . وبناؤه من هذه الجهـة ، باللَّبِن المشوي ، ومن نظر اليه يتذكر قول ابناء البشر : « تعالوا نصنع لِبناً ونَنضجه طبخاً » فكان لهم اللّبِن بـدل الحجـارة ، والحُمَر كان لهم بدل الطين . ومن كان لـه علم بالاشوريات ، وعرف مقابل هـذا الكلام ، في النص العبري وهو : « نِبني لِبَنِيم » لا يتمالك من ان يتذكر هذه العبارة الاشورية « Usalbina libiltu » ومؤداها : «جعلت ان يُصنع لِبنًا .» والعبارة للملك سرجون ، فان هـذا ابن البلاد العراقية ، تراه يستعمل ، بعد قرون عـديدة ، عين العبارة التي استعملها سلفاؤه ، في شأن هذا العمل ، والسبب في ذلـك ان ارض بابل مكوّنة من الرواسب الحاصلة من فيضـان الرافدين . ولا وجود للحجـارة فيها ، فمن ثم كانت حالة البناء فيها واحدةً ، من الاعصر القديمة ، حتى ايامنا هذه ؛ اذ ان اهل العراق يشيدون الدور ، اما باللّبِن المجفّف بحرارة الشمس ، او بالآجر ، اي اللّبِن المشوي بالنار . وهم محافظون على عادة من سبقهم في تلك الديار ، من ابناء البشر الاولين ، ومن عقبهم فيها من الفاتحين العظام ، الذين اسسوا هناك اكبر وافخر مدنية في العالم القديم ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يستعملوا مادة لبنائهم ، سوى الصلصال

هذا ، واذا رقينا بذاك المنحدر ، نصل الى مستوىً واسع ، ومنه نبلغ الى قمة الربوة . ومنها نشرف على سهول بابل ؛ فنرى الحلة ، وبابل ، وتل عمران ابن علي ، وكريش ، والقصر ، وبقعة المستنقعات . في اعلى الربوة قائمة ، حتى اليوم ، قطعة حائط جسيمة ، علوها نحو ١٢ متراً ، ما هي الا بقية من برج نبوكدنصَّر ، حسبما حقّق ذلك اهل الاثريات الـذين نقبوا في تلك المواطن ، من مثل فرنل واوپير وروولنسون . وقـد اعتمدت عليهم في هذا الشأن ، ومن رأيهم ان لون آجر الحائط ، وما حوله ، وتحجّره ، لا ريب انه قد نجم عن حريق هائل ، شبت نيرانه ، في هذا البناء الفخم ، فبدّلت حاله ، ولون آجره (للبحث صلة)